# فنّ الخطابة فی ضوء الحیاة الاجتماعیة فی العصر الأموی
# (الخطبة البتراء لزیاد بن أبیه نموذجاً)

عیسی متقی زاده
أستاذ مساعد بجامعة تربیت مدرس، طهران، إیران.
سجاد اسماعیلی
ماجستیر فی قسم اللغة العربیة وآدابها بجامعة تربیت مدرس، طهران، إیران.
S.esmaili@gmail.com

**الملخص**

المجتمع هو مرجع الحق والباطل ومرجع الجمال والقبح، والأدب فی الحقیقة تعبیر عنه. حسب هذه العبارة القصیرة یمکن أن یفهم بأنّ الحیاة الأدبیة فی جمیع العصور، والعصر الأموی نموذجاً، تکون متأثرة من المجتمع وتصطبغ الفنون الأدبیة بواقع مؤثراته الاجتماعیة. إنّ الحیاة فی بعض المدن الأمویة کانت علی جانب ملحوظ من الإغراق فی معطیات الثراء العریض والغنی الموفور، تجد مسرحها فی محافل الغناء وندوات اللهو والطرب، فتمتّع بکثیر من هبات الحاکمین وفاز بأسباب الرعایة والاستقرار. ولکنها فی بعضها الآخر کالعراق (البصرة والکوفة) کانت الفتن دائمة فیها، والقلق مستمراً، والحیاة الاجتماعیة غیر محکمة الصلات؛ ففی مجتمع کهذا، نشأت الآفاق الأدبیة المختلفة، وکثر الأدباء الأفذاذ الذین بیّنوا آرائهم من خلال الشعر أو النثر أو الخطابة لأغراض یتطلبها المجتمع.

وکانت الخطابة – بوصفها فنٌّ لمشافهة الجمهور مع أسالیبها العدیدة کالإقناع والاستمالة – متأثّرةً من مؤثّرات اجتماعیة مختلفة فی نشوءها وتکوینها. أی بما أنّها تکون سلاح المجتمع الإنسانی فی سلمه وحربه، وفی ترقیته والإسراع به نحو المثل الأعلی، لذلک حاول هذا البحث المتواضع المناقشة حول دور الحیاة الاجتماعیة فی العصر الأموی، ومؤثراتها علی الخطابة مستمداً بتحلیل خطبة زیاد "البتراء"، متبعاً المنهج الوصفی والتحلیلی.

أمّا النتائج التی توصّلت إلیها هذه الدراسة فهی أنّ الخطابة کانت مولد المجتمع وأثّرت فیها مؤثرات مختلفة کانت مؤثّرة فی خطبة زیاد البتراء، بحیث اعتبرناها خطبة اجتماعیةً إصلاحیةً.

الکلمات الدلیلیة: العصر الأموی، الحیاة الاجتماعیة، الخطابة، زیاد ابن أبیه، الخطبة البتراء.

**المقدمة**

من البديهى أنّ المظاهر الأدبية فى كلّ عصر من الأعصار، كنزٌ لمعرفة أحوال الناس وثقافتهم وآدابهم الاجتماعية؛ حيث يمكن عقد الصلة بين الظواهر الجمالية والدلالية وبين البيئة الاجتماعية التى ولدت فيها هذه الظواهر، وهذه الظواهر تسهم فى صياغة النص فى سياق خاصّ منها الشعر والنثر، لذلک تقترن الحركة الأدبية فى كل عصر من العصور وفى أىّ مصر من الأمصار بعامل الاجتماع. (البستانى، ١۴٢٢: ٣١٠- ٣١٣)

عندما ننظر إلى البيئات العربية من الناحية الاجتماعية إبّان العصر الأموى فإننا نلحظ تطوّراً فى حياتها الاجتماعية نتيجة للمؤثّرات الكثيرة التى طرأت عليها منذ الإسلام، كما نلاحظ تأثّراً بهذا التطوّر الاجتماعى وانعكاساً له فى الشعر الأموى ونثره. ويلاحظ أنّ المظاهر الاجتماعية فى ذلک العصر، قد أخذت تختلف باختلاف البلدان التى غلبت فيها العناصر العربية؛ ففى المدن الحجازية وخاصةً مكة والمدينة، وجد ترف بعد أن لم يكن، وذلک لأنّ الدولة الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج إلى الأقاليم، حتّى لاينازعها السلطان، وأدرت عليهم الخيرات ما منعهم من التفكير فى الانتقاض عليها، وأكثر أولئک من ذوى القلوب والعواطف الشديدة، العقول القوية. (عبد العزيز، ٢٠٠١: ١٢٧)

فى الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائداً، ولكن فى احتشام فى أكثر الأحيان، ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم، وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، وكيلا تتألّب عليهم العرب، وأكثرهم متديّن، ففى قصور الخلفاء كلّ وسائل الترف، من قيان وغناء، لذلک كانت الشام ميدان المباراة فى تملّق الخلفاء ومدحهم، بالخطب أحياناً وبالشعر أحياناً، وفيها كانت المفاخرات والمنافرات بين أيدى الخلفاء، وتحت سمعهم وبصرهم.

أمّا فى العراق وخاصةً فى الكوفة والبصرة، الفتن دائمة، والقلق مستمرّ، والحياة الاجتماعية غير محكمة الصلات، والسبب فى ذلک أنّه قد سكنه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين طوائف من أجناس مختلفة فمنهم العرب وأغلبهم مضريون، ومنهم النبط، ومنهم الفرس، ومنهم الآراميون، ولكلّ طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد، تستمدّها من قوميتها الأو لى، وجنسيتها القديمة؛ لذلک بدت فى العراق أفكار مختلفة وأهواء متناقضة ، وإحساسات متنازعة، ومجتمع كذلک تكثر فيه الفتن ويشتدّ الاضطراب. (أبوزهرة، ١٩٨٠: ٢٩٣- ٢٩٥)

إذن نرى أنّ انتعاش الحياة المعاشية فی بعض المدن الأموية وازدهارها وظهور كثرة الموارد أدّت إلى الترف والابتعاد عن شظف العيش وخاصة فی دووابن الدولة عند الخلفاء والأمراء فبنيت القصور وانتشر اللهو وظهر الترف والغناء والمحافل الكبرى والمواكب والاحتفالات؛ وكثر الشراب وقد قلّد الأغنياءُ الخلفاءَ والأمراء فيما فعلوه فی حياتهم، لكن فی بعض المدن كانت الحياة تعانی من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية العويصة كالحروب والفتن، فكان لهذه الأسباب أثرها الكبير على حركة الأدب واتجاهاته؛ حيث إنّ الحركة الأدبية فی هذا العصر لاتشذّ عن حركة الأدب بعامة فی عوامل نموّها وتلوينها بل ربّما كانت أكثر الحركات الأدبية التی شهدتها العصور الأدبية متأثّراً من تلک المجتمعات. (الحسين، ۱۹۹۸م: ۹-۱۰؛ والجبيلی، ۲۰۰۵م: ۴۴۱) لذلک ظهرت فی ذاک الجو السائد فی المجتمع الأموی، آفاقٌ علميةٌ وفكريةٌ بين مجموعة من النوابغ والأفذاذ فی ذاک العصر ونشطت النشاطات الأدبية، منها الحركة الخطابية بينهم وترعرع الخطباء البارزون متأثّرين من تلک المجتمعات.

فالخطابة اتّصلت اتصالاً مباشرةً بحياة الدول الاجتماعية لدى الأمم والشعوب فنمت بنموّها وترقّت برقيها. بحيث كثرت وتطوّرت من خلال المؤثّرات الاجتماعية المختلفة منها: البيئة الحضرية والبيئة الاجتماعية، وامتزاج العرب بالأمم الأخرى، والعصبيات والمفاخرات، والمحافل والوفادات، والاضطرابات السياسية والاجتماعية لاسيّما بعد مقتل عثمان، من قِبل الأمويين، والعلويين، والزبيرية، والخوارج، والقبائل المتعصبة، والعراق وثوراتها. فلهذا تأثّر الخطباء فی الحجاز والشام، من الحياة المترفة والرخية فی تلک المدن وقاموا بقول الخطب الحفلية المزينة بجميع الزخارف الأدبية، وبعضهم فی العراق ومدنه كالبصرة والكوفة، فقد تأثّروا بمظاهر الحياة فی تلک المجتمعات فی خطبهم، لأنّ الحياة الاجتماعية كانت تمضی فيها مع الفتن والاضطرابات آنذاک؛ لذلک فقد اصطبغت الخطابة فی هذا القطر بواقع هذه الحياة الاجتماعية فكانت الخطابة الحزبية، والسياسية، والاجتماعية، والاصلاحية شائعةً هناک.

لهذا سنجد كيف قفز النثر قفزة نوعية؛ محققاً تقدماً بارزاً على صعيد فنّ الخطابة بالقياس إلى ما كان عليه فی العصرين السابقين: أی الجاهلی وصدر الإسلام وبالقياس إلى ما آل إليه طيلة العصر الأموی الذی ورث من هذين العصرين سياسياً، وعلمياً، وأدبياً.

والجدير بالذكر، بأنّ هذه الخطَب،كانت تستتبع أغراضاً تتشعّب عن المجتمع الذی يخاطبه الخطباء، مثل هذه الأغراض كانت إقناع الآخرين، والاستمالة، وأغراض حكومية أخرى. لهذه الأسباب اتجهنا إلى دراسة الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه الموجّهة نحومجتمع البصرة المكتظّة من المؤثرات السياسية والاجتماعية، مبيّناً دور تلک المؤثرات فيها.

**أسئلة البحث**

١. ما هی الأدلة التی تثبت بأنّ زیاد بن أبیه وخطبته کانا متأثرین من المؤثرات الاجتماعیة؟

٢. هل یمکن أن نعتبر الخطبة البتراء خطبةً اجتماعیة واصلاحیة؟ وکیف؟

**الدراسات السابقة**

تطرّقت بعض الدراسات إلی دراسة بعض الفنون من الأدب فی العصر الأموی کالخطابة وأحد خطبائه الکبار کزیاد ابن أبیه، وإلی مجتمع من المجتمعات فی ذلک العصر کالحجاز؛ ولکنّها ما تطرّقت دراسةً مباشرةً بإیضاح دور المجتمع الأموی فی الخطابة، منها:

١. رسالة ماجستیر لإبراهیم فرحانی بغلانی (١٣٧٣هـ) وعنوانها «حرکة تطور الخطابة فی الأدب العربی من العصر الجاهلی حتی نهایة العصر الأموی»، اهتمت الی دراسة تطور الخطابة فی تلک العصور من غیر تأثیرها من المجتمع.

٢. دراسة عبدالله بن سالم الخلف (١۴٢٢هـ) وعنوانها «مجتمع الحجاز فی العصر الأموی» رکّزت هذه الدراسة بتفصیل مظاهر الحیاة الاجتماعیة فی إحدی من المدن المترفة فی العصر الأموی، أی الحجاز.

٣. دراسة علی نعیم جفّال (١٩٩٠م) وعنوانها «زیاد ابن أبیه بحثٌ فی الخطابة الأمویة» التی اهتمّ المؤلّف فی هذا الکتاب بدراسة خُطب أحد الخطباء الکبار فی العصر الأموی أی زیاد ابن أبیه من غیر تبیین دور المجتمع الأموی فی خطبه.

فاهتمامنا علی هذه الدراسات ساعدنا فی تجمیع هذا الکمّ الضئیل من المعلومات، وقد أذکت الحماس فینا للخوض فی دراسة الخطابة، وارتقت نظرتنا إلی أفق آخر من الخطابة وهو تبیین دور المجتمع الأموی علی نشوءها وتطوّرها، مستمدّاً بتحلیل خطبة زیاد "البتراء".

لکن قبل أن نجیب عن السؤالین السابقین ونخوض فی صلب الموضوع، لا بدّ لنا أن نکشف اللثام عن الخطابة ونسلّط الضوء علی بعض خصائصها الرئیسة فی هذا العصر حتّی یوضّح لنا مدی أهمیتها.

**١. الخطابة فی العصر الأموی**

لما جاء الإسلام بفتوحاته ازداد النثر توسعاً، بحیث عمد إلی الصنعة وغلب علیه الطبع وکان یقصد الی توضیح الفکرة بأیسر عبارة وأقرب طریق وکانت قاعدة البلاغة فیه الإیجاز. (الفاخوری، ١٣٧٧ق: ٣١٧) فاقتضت الحاجة إلی المراسلة بعد اتّساع الفتوحات ودخول الأقطار النائیة فی حوزة الحکم الإسلامی، وإلی الخطابة لتعلیم الناشئین من الأجیال الطالعة والداخلین فی الإسلام من الأعاجم ولإخضاع المتمردین من المخالفین وقمع العصاة من الثائرین و...إلخ. (یازجی، ١٩٨۶: ٣٨) إذن أهمّ جوانب النثر فی تلک البرهة یکون الترسل والخطابة؛ حیث إنّ الترسّل کان یستفاد منه فی بیان الأحکام الإسلامیة غالباً، والخطابة لإسکات فم المتمرّدین والمعترضین وأحیاناً للوعظ والترهیب للعصاة والفاسقین. فلهذا فنّ

الخطابة يكون أكثر أهمّية من الترسّل لأنّها تخاطب الشعب إصلاحاً لأمورهم. وفی تعريفها يقال الخطابة هی: «فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة»، وبهذا التعريف الذی سبق تختلف عن الكتابة والنثر الفنی، إذ لا شرط هناک لوجود الإقناع أو الاستمالة وقد تكون الكتابة وصفاً لمنظر ما، أو صفةً لحالة نفسية للكاتب. (شلبی، ۱۹۸۶م: ۱۳) ولكن الخطابة تحتوی على عبارات كثيرة من النثر الفنی فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق وقد يرفع هذا قيمتها. (قدامة بن جعفر، ۱۹۳۷م: ۹۳)

إنّ دراسة الخطابة ترشد من عنده استعدادٌ لها، ويريد أن ينميها، فهی تنير السبيل ليسير على هداية ويكون على بيّنة من أمره. وهی تدلّ على الطريق الذی يجب أن يسلكه، وتكشف عن السير فی تأثير الخطباء واستيلاءهم على مشاعر من يخاطبون واجتذاب نفوسهم وطرق إقناعهم. والهدف الذی يستتبع الخطابة هو التأثير، ومخاطبة الوجدان، وإثارة الإحساس والشعور ليذعن المخاطب للحكم ويسلّم به. (العاملی، ۱۹۸۳م: ۷ – ۱۷) إذن يمكننا أن نستدلّ بأنّ الخطابة هی تعبير أدبیّ جميل، فی غاية المحسّنات اللفظية التی تستتبع هدفاً تعليمياً مهماً، أی بصفتها مشعلاً منيراً تهتدی من ضلّ وخرج عن سبيله إلى طريق الصواب، من خلال الأساليب المختلفة التی يعتمد الخطيب عليها لتؤثّر فی تفكير الجمهور وعواطفه، وتدفع الإرادة إلى العمل الحاسم، ومن هذه الوجهة صارت الخطابة فنّاً عملياً إصلاحياً.

أمّا العصر الأموی فهو من أزهی عصور الإسلام خطابةً، ولم يكن حظّ الخطابة من الرواج والنقاء فی أیّ عصر من عصور الأدب العربی كلّه مثل ما كان فی هذا العصر. ازدهرت الخطابة فی هذا العصر وافتنّ الخطباء فيها، فتميّزت بخصائص شتّی، لم تجتمع كلّها للخطابة فی الجاهلية ولا فی صدر الإسلام، ولم تجتمع لها فی العصر العباسی. لهذا يصحّ اعتبارها فی تلک الفترة نموذجاً مكتملاً للخطابة العربية فی العصور السابقة. (الحوفی، ۲۰۰۱م: ۲۰۹) ازداد عدد الخطباء فی ذلک العصر ازديادا بالغاً، وتعدّدت طوائفهم، واختلفت نواحيهم، ومذاهبهم الفكرية، وكان لكلّ حزب خطبائه. فی الخطب السياسية زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف فی الحزب الأموی والمختار الثقفی فی الحزب الشيعی وقطری الفجاءة فی حزب الخوارج. فی الخطب الحفلية الأحنف بن قيس زعيم تميم بالبصره. واشتهر فی الخطابة الدينية على بن ابی طالب وتميم الداری بالمدينة والحسن البصری وواصل بن عطاء والفضل بن عيسى فی العراق وغيلان والأو زاعی فی الشام. (الفاخوری، ۱۳۷۷ق: ۳۱۹)

**۲. خصائص الخطابة**

كما عرفنا أنّ الخطابة فی العصر الأموی كانت استمراراً للخطابة فی صدر الإسلام الأو ل ولكن زادت فيها خصائص انفردت عن الخطابة فی العصور المنصرمة، منها: ۱. طول الخطب؛ ذلک لأنّ الخطبة كانت

لتبليغ أو أمر الدولة فلمّا كثرت تلک العوامل باتساع رقعة الإمبراطورية وبتطوّر الحياة الإدارية والسياسية احتاج الخطباء إلى بسط القول فى ذلک ومن هنا جاء طول الخطب فى الدرجة الأو لى. ۲. ظهور عنصرى التهديد والوعيد؛ ذلک لأنّ الولاة الأمويين كانوا يخاطبون فى أول الأمر على الأقل فى بيئات معادية للدولة الأموية. لذلک ظهر الحزم فى مخاطبة الجمهور وكثر التهديد للذين تحدثهم أنفسهم بالعصيان،كما نرى فى خطب زياد بن أبيه ثم الحجاج على الأخص؛ مثل قول زياد فى خطاب أهل البصرة: «ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر... .» وكثيراً ما مزجوا الخطباء أساليب التهديد بروح الاحتقار وعمدوا إلى عبارات الشتم والتهديد والتنديد. ۳. الإفادة من منهج الاستماله والترغيب. (فروخ، ۱۹۹۲م: ۳۷۴– ۳۷۳) ۴. كان الخطباء الأمويون يعنون بتجويد خطبهم وتحبيرها وتنميقها حتى تأتى فى الصورة التى يرتضونها ولم يكونوا يرسلون الكلام عفواً على البديهة – صنيع الجاهليين – وكان من ثمرة هذا التنقيح أن جاءت خطب العصر الأموى منسّقة الأفكار، مرتبة الأقسام، محكمة التسلسل. وتظهر هذه السمات على نحو جلىّ فى خطبة زياد بن أبيه التى قالها يوم قدومه فى البصرة. ۵. كان من الخطباء من تعمّد محاكاة أهل البادية فى جزالة أسلوبهم وبداوة ألفاظهم. ۶. استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده وإلّا كانت البتراء وتوشيحها بآية من القرآن الكريم وإلا كانت شوهاء، لذا وشيت خطب العصر بآيات من القرآن لأغراض فيها الوعظ والردع والترهيب. ۷. ترصيع الخطب بالأمثال والشواهد الشعرية فى مواقف الإرهاب والشدّة والتحدى والمفاخرة، كفعل الحجاج فى خطبة الولاية. ۸. وقع السجع فى طائفة من الخطب الأموية ولكن الخطباء ما كانوا يسرفون فى الإتيان به كراهية محاكاة سجع الكهان. ۹. محاجة الخصوم بالبراهين والأدلة العقلية؛ حينما ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع وظهر صدى ذلک فى الخطب والمناظرات من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها واستنادها إلى المنطق وأصول الجدل. ۱۰. امتلاء الخطب بروح الإعتداد والفخر والزهويات بالمناقب، كقول عبد الملک: «إنّى والله ما أنا بالخليفة المستضعف.. فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا...» ۱۱. ترأو ح الخطب بين الإيجاز والإطناب حسب مقتضى الحال. ۱۲. الإلحاح على عوامل الإثارة أكثر من الإلحاح على أدلّة الإقناع. (http://www.mohtawa.org)

هذه كانت أهمّ وأبرز المعانى والخصائص الفنّية فى خطب الأمويين التى تتفاوت بتفاوت أغراضها وموضوعاتها. وهذا لايعنى أنّ هذه الخصائص لم تكن فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام بل فقد ظلت بعض خصائص الخطابة الموجودة فى خطب صدر الإسلام قائمة فى الخطب الأموية أيضاً.

نشأت وازدهرت الخطابة فی هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً وقد عملت فی هذا الازدهار أسباب مختلفة منها: ١. الأحزاب السیاسیة المتعددة من الأمویین والزبیریین والخوارج والشیعة، ٢.حریة الرأی بالقول والجهر بالرأی، ٣. الحروب والثورات، ۴. فصاحة العرب، ۵. تقریر الخطباء، ۶. الجدل المحتدم بین الفرق الدینیة. (الجنابی، ٢٠٠۵م: ١۵۶– ١۵٩) لکن ما نرید مناقشته فی هذا البحث هو ، تبیین دور المؤثّرات الاجتماعیة فی نشوء وتطوّر الخطابة.

**٣. المؤثّرات الاجتماعیة فی نشوء الخطابة فی العصر الأموی**

الخطابة فی هذا العصر أفسحت مکانها من خلال بعض العوامل الاجتماعیة منها ما هو اجتماعی صرف، ومنها ما هو بسبب من السیاسة والدین، وثمّة ظواهر لها وجهان أحدهما سیاسی والآخر اجتماعی، کالعصبیة القبلیة مثلاً. بما أنّ الخطابة تعکس لنا بصورة صادقة أمینة أحداثِ العصر الذی یظلّها وأحوال المجتمع؛ فلنترک الحدیث عن العوامل السیاسیة ونعرض بعض العوامل الاجتماعیة المؤثّرة فیها.

**٣. ١. البیئة الحضریة والبیئة الاجتماعیة**

أصبحت الحواضر فی هذا العصر الموجّه الأول للحیاة العلمیة والأدبیة والفکریة والسیاسیة. فکذلک أصبحت الحواضر موطن النشاط الخطابی الخصب والموجه الأول لحیاة الفنّ الخطابی فی هذا العصر. وفی هذه المراکز الحضریة نشأ أشهر الخطباء وأفصحهم، وفی مساجدها وحلقاتها ألقیت أروع الخطب وانعقدت مجالس المناظرة والجدل. فأدّی تحضّر العرب فی هذا العصر واستقرارهم فی البیئات المدنیة الجدیدة إلی ازدهار الحرکة الخطابیة وکثرة عدد الخطباء وإلی تعدّد صور الخطابیة وأنواعها. أمّا أشهر المراکز الحضریة التی ازدهرت فیها الخطابة فهی: الکوفة، ودمشق، ومرو، والمدینة، ومکة، والفسطاط والمراکز الثلاثة الأولی تأتی فی الطلیعة، ففیها ألقیت جلّ الخطب السیاسیة والدینیة والاجتماعیة فی عصر بنی أمیة. (النص، ١٩۶٣م: ١٢۶ – ١٢٨) لذلک أنّ الحیاة الاجتماعیة فی البیئة الحضریة کانت فی العصر الأموی أخصب وأنشط منها فی البیئة البدویة. والخطابة بصفتها ظاهرة اجتماعیة ولا ظاهرة فردیة کالشعر، ترتقی بارتقاء الحیاة الاجتماعیة ونموّها.

**٣. ٢. امتزاج العرب بالأمم الأخری**

أدّت الفتوح الإسلامیة إلی انضواء أمم کثیرة تحت لواء الحکم العربی فدانت لسلطان بنی أمیة شعوب شتّی فارسیة وترکیة وبربریة وهندیة وغیرها، وما لبث العرب أن ارتحلوا إلی البلاد المفتوحة واستقرّوا فیها وأنشأوا لهم فیها حواضر جدیدة کانت فی الأصل معسکرات لهم کالکوفة والبصرة والفسطاط والقیروان. وکان لا بدّ لهم من الاختلاط بسکّان البلاد الأصلیین والامتزاج بهم، وکان لهؤلاء حضارات سابقة وثقافات مزدهرة وودیانات قدیمة ونظم سیاسیة واجتماعیة، ولم یکن بدّ من أن تتفاعل هذه

الحضارات والثقافات جميعها لتتولّد من التفاعل حضارة جديدة هى مزيجة من جميع هذه الحضارات التى انصهرت فى بوتقة الدولة العربية، ولم يكن بدّ أيضاً من نشوء مجتمع جديد لا هو بالعربى الخالص ولا بالعجمى الخالص وإنّما هو خليط من هذا وذاک. وكان من نتيجة هذا الامتراج نشوء اللحن الكثير فى كلامهم والكلمات الأعجمية والفساد فى اللغة. ولم ينتشر اللحن فى المدن والحواضر فحسب بل تسرّب إلى البادية أيضاً. (المصدر نفسه: ۱۲۸-۱۳۰) بما أنّ الخطباء كانوا يعيشون فى تلک المجتمعات، إذن من الطبيعى أن ينشاء اللحن فى كلامهم والفساد فى لغتهم،كما تُشاهد هذه الظاهرة فى بعض خطب الحجاج حينما يقول: «إنّا من المجرمون منتقمون»، بينما الصواب فى قوله هو "المجرمين". لذلک إنّ اختلاط العرب بالأعاجم وانتشار اللحن وفساد اللغة، فقد أثار هؤلاء الأعاجم معهم أنماطاً جديدة فى التفكير والنظر العقلى. تجلّى أثر الجدل فى خطب هذا العصر.

**۳. ۳. العصبيات والمفاخرات**

لما هاجرت القبائل العربية من مواطنها إلى الأمصار واستقرّت فى الحواضر ظهرت العصبية عند أهل كلّ مصر لبلدهم. وأنّ نفوس العرب قد تشرّبت حبَّ التعصب حتّى بات كلّ افتراق بينهم على نحوما يؤدّى إلى عصبية تساوقة، فأهل البادية يتعصّبون لباديتهم وأهل الحضر لحواضرهم وأهل الأمصار يتعصّب كلّ منهم لمصره، فإذا ظهر فى بلد ما مذهب دينى أو لغوى أو أدبى وجدنا أهله يتعصّبون له أيضاً. ثمّ كان من نتيجة الفتوح العربية واختلاط العرب بالأمم الأخرى، أن ينظر العرب إلى الأمم الأخرى نظرة السيد إلى المسوّد وتعصّبوا لعروبتهم واحتقروا الموالى. لهذا صار المجتمع الأموى مجتمعاً لاتؤالفه روح الألفة والتآخى ولا الشعور بالمساواة فى التعأو ن المتبادل، فعلى عاتق هذه العصبيات أولاً تقع الاضطراب الاجتماعى وتقطيع الوشائج التى كان ينبغى أن تؤلّف ما بين أفراد المجتمع الواحد، كذلک هذه العصبيات من الناحية السياسية كانت أمضى معول لتقويض صرح الدولة الأموية. (المصدر نفسه: ۱۳۲-۱۳۳) من البديهى أن تظهر نتيجةً لهذه العصبيات روح التنابز والفخر بالألقاب والأنساب والأحساب والاعتداد بمكارم الآباء ومآثر الأجداد. وأشهر ما خلّفه لنا العصر الأموى من هذه المفاخرات ما جرى بين حجاج بن يوسف الثقفى وأهل الكوفة حينما يفتخر فى مطلع خطبته بنفسه ويشبه نفسه برجل جلا فى الأمور ويشتدّ فى الغارة والحرب: «أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا/متى أضع العمامة تعرفونى.»

**۳. ۴. المحافل والوفادات**

من الظواهر التى يلاحظ فى عصر بنى أمية، هى كانت حظّ الأمصار من الشأن العظيم فى توجيه الحياة السياسية، وانتقال مركز الثقل السياسى من البادية إلى الحواضر. ولم يكن بدّ من أن تتجه الحياة الاجتماعية اتجاهاً حضرياً يلائم إتّجاه الحياة السياسية. ففى المدن والأمصار كانت تقوم المحافل

الخطابية يخطب فيها لأغراض شتّى من أوتوا الموهبة البيانية من فصحاء العرب. يتفاخرون أو يتناظرون أو يتبادلون الرأى فيما يعرض لهم من جليل الأمور. ومن المجالس الخطابية المشهورة هى المجلس الذى اجتمع فيها أربعة من أعلام البيان هم خالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء. (المصدر نفسه: ١٣٩) فهذه المحافل والوفادات كانت داعية لقول كثير من الخطب التى تعدّ من خير خطب العصر الأموى. لأنّ الخطباء كانوا يبذلون فى هذه الخطب من عناية مسرفة فى تحبيرها وتجويدها. وهكذا صارت الخطابة ضرورة من الضرورات الحياة الاجتماعية وأكسبت منزلتها فى الدولة الأموية.

**٣. ٥. الاضطرابات السياسية والاجتماعية**

كانت الاحداث السياسية والاجتماعية التى حفل بها العصر الأموى أبرز العوامل التى تأثّر بها الفنّ الخطابى فى هذا العصر، وتاريخ العصر الأموى يسجّل صراعاً متصلاً بين الفرق والأحزاب المختلفة، وكان مدار هذا الصراع على الخلافة، ففى سبيل الظفر بها اصطرعت الأحزاب والفرق صراعاً حربياً لسانياً لم تهدأ ثائرته طوال هذا العصر، وكان النزاع القبلى صورة من صور هذا النزاع السياسى الذى شاهدها هذا العصر وأيضاً الصراع بين العرب والعجم كان لوناً آخر من النزاعات فى هذا العصر. وكان من شأن هذه الأحداث أن ازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً لم تحظ به فى أى عصر آخر، إذ أنها كانت بمثابة أحد الأسلحة الماضية التى استخدمت إبان هذه الصراعات السياسية العنيفة. أى إذا اضطربت أمّة لتغيير سياستها، أو تبديل دينها، أو إصلاح نظام اجتماعى من نظمها، انبعث منها خطباء يتصدّرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون إلى الجديد، ويكتشفون عن مزاياه، ويزعزعون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوضوه. (الحوفى، ٢٠٠١م: ۴۴) كما يرينا زياد ابن ابيه فى خطبه مظاهر هذا التاثير.

فلذلک من الطبيعى أن نرى الوقع الكبير من هذه المؤثّرات وميلها إلى الترف، والفخر، والعصبية، والابتعاد عن شظف العيش، وبناء القصور، وانتشار اللهو ، والمحافل الكبرى، والاحتفالات وأيضاً الاضطرابات السياسية والاجتماعية، على حركة الخطابة وأغراضها لدى الخطباء فى المجالات المختلفة. بحيث إنّهم قد جرّبوا هذه المؤثرات الاجتماعية تجربةً شعورية تامّةً وتأثّروا منها فى خطبهم.

بين أيدينا أدلّة وافرة من أقوال الخطباء الكبار تؤيد ما ذهبنا إليه، من ذلک ما نراه فى خطب زياد ابن أبيه؛ حيث طغت تلک المؤثّرات على روحه الأدبية وامتلأت خطبه إمّا بروح الإعتداد والفخر بمناقبه وإمّا بروح الاهتداء والإنذار للمجتمع وإصلاح أموره، من خلال الأساليب المختلفة كالإقناع أو الترغيب أو الترهيب و... الخ. فتحليلُ خطبته البتراء يكون مثالاً جلياً للكشف عن حقيقة هذا التأثّر.

**۴. تحليل خطبة البتراء وتبيين دور المجتمع فيها**

**۴. ١. زياد بن أبيه والمجتمع**

يستحقّ الانتباه لشخصية زياد أكثر من الشخصيات الخطابية الأخرى فى هذا العصر لأنّ سيرته تظهر لنا جوانب من محأو لاته السياسية ومواجهته مع الأحزاب والجماعات المختلفة، كما تظهر جوانب أخرى من بعد النظر وعمق التفكير وتقدير الأحداث المتوقعة. لهذا نقف أمامه وقفة قصيرة كى تجيبنا شخصيتُه وأعمالُه الحكومية عن كيفيةِ تأثّره من تلك الأحزاب والجماعات خاصةً ومجتمعه عامةً.

إنّ زياد بن أبيه ولد بالطائف فى السنة الأولى من الهجرة ويقال أيضاً أنّه ولد عام الفتح. اشتهر منذ نشأته بالذكاء والدهاء وقوة المعارضة وحضور البديهة ويعتبره المؤرخون أحد دهاة العرب ويجعلونه فى طبقة عمروبن العاص والمغيرة بن شعبة ومعأو ية بن أبى سفيان. (ضيف، ١٩٥٦م: ۴٨) لما فتح عتبة بن غزوان – عامل معسكر البصرة – الأبلةَ وأصاب بها غنائم كثيرة ولم يجد بين المسلمين من يحسن الكتابة، فاختار زيادَ كاتباً لها وجعل له درهمين كلّ يوم، ثمّ ظلّ يسحب الجيش فى فتوحاته فى الشرق ويكتب للناس الحساب ويدوّن أسماء المحاربين ويخطب أثناء الحروب خطبة ويشجّع المقاتلين على المقاتلة. وبسبب نجابة زياد وأجادته فى الكتابة والحساب والخطابة لم يستغن عنه ولاة البصرة فظلّ على صلة بهم فى عهد عمر، وعثمان، وعلى (ع)، ومعأو ية. فى عهد عمر كان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ولأبى موسى الأشعرى، وفى عهد عثمان كان والياً على الديوان وبيت المال، وفى عهد على أيضاً كان والياً للخراج وبيت المال وقد جرّته هذه الأعمال إلى الاتصال بالحزب العلوى. كما ولّاه معأو ية والياً على البصرة وخراسان وسجستان، ثمّ جمع له السند، والبحرين، وعمان ثمّ ضمّ له الكوفة فأصبح بذلک والياً على العراقين (البصرة، والكوفة). (شلبى، ١٩٨۶م: ٢٢٥–٢٣٠) يبدوأنّ زياد كان يعرف تعلّم الحساب، والكتابة، والخطابة فهذه البراعات قد سبّبت حضوره فى الحروب ومواجهته أمام القواد. وجعلت الأمراءَ أن يثقون به ويولونه الأعمال الحكومية المختلفة فيشهدون بطول باعه فيها.

ولاية زياد على البصرة وبما كان فيها –كما بالعراق كلّه – من تفرّق الكلمة وتشعّب الرأى واختلاف الأهو اء، قد جعلته أن يدرک وخامة ظروف البصرة وحرج موقفه. ولكنه لم يصبح محايداً بل أصبح أموياً يساعد تلک الظروف. لم يترک زياد فى حكومته وسياسته الداخلية ما ألفه من ضرب بعض خصومه ببعض، وعمل فى العراق على تفتيت وحدة القبائل فقسّمها أرباعاً، ونقل بعضاً من الكوفة إلى البصرة ليقلّل عدد القبيلة الواحدة، ويفل شوكة المتآمرين. (المصدر نفسه: ٢٣١– ٢٣٢) لذلک نرى بأنّه قد بذل قصارى جهوده فى سبيل إقرار الأمن والقضاء على ما كان فى العراق عامّة والبصرة خاصّةً من الاضطرابات الاجتماعية. ربما خطبته المعروفة بالبتراء تكون من أصدق وأبرز أدلة على ميزان اهتمامه بالبصرة. لذلک صار من أبرز خطباء بنى أمية، وأعظم خطيب سياسى فى الأدب القديم.

من خلال دراسة حياة زياد الشخصية والاجتماعية يمكن القول بأنّ هناک توجد الدواعی الهامّة التی تثبت بأنّه کان متأثّراً فی خطبه من المجتمع ومؤثراته المختلفة، الأو ل: أنّه تولّی مهمات قيادية – إدارية وتنظيمية – جسّاماً؛ تمثّلت بتولية إمارة فارس زمن الإمام علی، ثمّ إمارة البصرة، فالكوفة، فالحجاز واليمامة، جميعاً زمن معأو ية، ولقد نجح فی إدارة شئون البلاد التی تولّاها نجاحاً منقطع النظير، فولايته لهذه الولايات تدلّ علی أنّه کان متأثّراً من البيئة الحضرية والبدوية وأيضاً علی اتصاله وامتزاجه بالامم الأخری کالفرس أی إمارة خراسان وسجستان. والثانی: الصعوبة التی واجهها فی أثناء ولايته فی بلوغ الأهداف وفی توطيد الأمن وإشاعة الهدوء، متأثرةً من الأو ضاع السياسية والاجتماعية المضطربة آنذاک. کما أنّ النشاط السياسی والدينی کان علی أشدّه فی ذلک الزمن، فقد کثرت الأحزاب وتعددت الفرق الدينية، التی راح کلّ منها يدعوالی نفسه، ويعمل بکلّ الوسائل من أجل الوصول الی أهدافه السياسية والاجتماعية. وأخيرا لعلّ عاملاً شخصياً يتعلّق بنسب زياد المضطرب وانعکاس ذلک الإحساس علی شخصيته وسلوکه العام.

لذلک إنّ الأوضاع السياسية المعقّدة والأحوال الاجتماعية المضطربة، إضافة إلی قدراته الذاتية، هی التی جعلت زياد رجل الخطابة الأو ل فی عصره، وجعلت خطبته المسمّاة "بالبتراء" نموذجاً کاملاً للخطابة السياسية والاجتماعية فی العصر الأموی بخاصة وفی العصور اللاحقة بعامّة. إنّه قام علی المنابر خطيباً ينشر الدعوة لبنی أمية ويدعو إلی السکينة والانقياد، إنّه کان يتمتّع بسلطان واسع علی أبناء ولايته، کما کان شديد الاطّلاع علی أحوالهم الشعوب ونفسانياتهم. ربّما تحليل خطبته المعروفة بالبتراء تکون مما يدلّنا إلی أنّها خطبةٌ متاثرةٌ من المجتمع الذی شاهده وعاناه.

**۴. ۲. تأثّر خطبة "البتراء" بالمجتمع**

إنّ من يرجع إلی خطبة زياد البتراء يلاحظ أنّه عُنی بتأليفها عنايةً شديدةً فهی مقسّمة إلی فِقر وکل فقرة نشعر إزاءها کأنّها وحدة قائمة بنفسها، وربّما کان هذا هو أهمّ فارق بين خطبة زياد وخطب صدر الإسلام. والأهمّ من هذه أنّ الخطيب ما تطرّق فيها بالدين وأحکام الشريعة بل فصّل فيها کلّ ما يتعلّق بالمجتمع، ظروفه وملابساته ومشکلاته وکأنّها خطبة لأحکام العرفية التی توضعها الحکومة فی الحالات الطارئة عندما تتعرض للأخطار الداخلية والخارجية المهدّدة لسلامتها. لذلک قمنا بتحليل هذه الخطبة اجتماعياً ولا أدبياً.

إن ننظر إلی الخطبة البتراء نظرةً تأمّليةً ودقيقةً نری أنّ فيها دواعياً تثبت تأثّرها بالمجتمع، فنأتی بشرح أهمّها فيما يلی:

**الف. حضور زياد بن أبيه فى البيئة الحضرية والاجتماعية المضطربة:** إنّه ألقى هذه الخطبة حينما ولّى البصرة لمعأو ية بن أبى سفيان وهى تتصل بظروف تحكمت بمعانى الخطبة وألفاظها؛ البصرة فكانت قد شقّت عصا الطاعة على بنى أمية، وانحلّت فيها رابطة الخلق، وعمّتها مفاسد الأخلاق، وبيوت الفحش والريبة. فقد عرف زياد أهل البصرة وعرّفوه من قبل، حين كتب لأبى موسى الأشعرى فى أثناء ولايته عليها، فى خلافة عمر بن الخطاب وقد كان بينه وبين قوم منهم إحن نشأت عن تعبيرهم له بالنسبة الضعيف، قبل أن يستلحقه معأو ية بأبيه، ولا ريب أنّ تلك المواقف الماضية كانت لاتزال تؤثّر فى نفسه وتشعره بمركب النقص، ولم يكن بوسعه أن يتجاهل ذلک وذكاؤه كان يحدوبه الى التعويض والتكافوء. (فاروق الطباع، ١٩٩١م: ٢٥٧) فكان على زياد أن يخلص لبنى أمية ويثبت لهم خلافتهم ويؤكّد حقّهم فى السلطة وأن يرجع أهلها إلى جادة الحق ويحملهم على الإذعان للأمويين. وقد بات يعتبر نفسه منهم. إذن نرى أنّه يبدأ الخطبةَ هكذا:

«أمّا بَعدُ، فانّ الجهالةَ الجَهلَاءِ والضّلالَة العَمياءِ، والغَىّ الموفى بأهلِه علَى النّارِ، ما فِيه سُفَهاؤكُم ويشتملُ عليه حُلماؤكُم، مِن الأُمورِ العِظامِ، ينبتُ فِيها الصَّغيرُ ولا يتحاشَى عنهَا الكَبيرُ ؛ كأنّكُم لم تَقرؤُوا كتابَ اللهِ، ولم تسمَعُوا ما أعَدَّ اللهُ مِن الثَّواب الكَريمِ لأهلِ طاعتِه، والعَذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتِه، فى الزَّمنِ السَّرمَدى الّذى لايزولُ. أتكُونونَ كَمَن طَرفَت عينَيه الدُّنيا وسدَّت مَسامعُه الشَّهو اتُ واختارَ الفَانية علَى البَاقيةِ ولاتَذكرونَ أنَّكُم أحدَثتُم فِى الإسلامِ الحَدَثَ الّذى لم تسبَقوا إليه، مِن تركِكُم الضَّعيفَ يقهَر ويؤخَذ مالُه.... ما أنتُم بِالحُلَماءِ ولَقد اَتبعتُم السُّفَهاءَ، فلَم يزِل بِكُم ما تَرونَ مِن قِيامِكُم دُونَهم حتَّى انتَهكُوا حُرَمَ الإسلامِ، ثُمّ أطرَقوا وَراءَكم كُنُوساً فى مَكَانِس الرَّيبِ.. » (ابن عبد ربه، ١٩٥٢م: ١١٠)

هذه القطعة من الخطبة ترينا مدى عناية زياد بتأليفها، يستهلّها ببيان غواية المجتمع البصرى وضلالتهم وانحرافهم عن هدى الإسلام وقرآن الكريم. ثم يبين لهم سياسته الّتى سيأخذهم بها وأنّها لين فى غير ضعفٍ وشدة فى غير عنف ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب.

ثمّ عندما يطمئنّ زياد إلى أنّ هذا المجتمع قد استكان أمام صولة الدين وأطرق أزاء ذلّة الخطيئة ووطأة الذنوب، وراح يتحسس فى قلوبهم مواطن الندامة؛ ثمّ يبدّل ثوب الواعظ ويظهر بلباس الحاكم الذى جاء يمارس صلاحياته ويوغل فى العنف والتهديد ويذكّر الناس بما استحدثوا فى الإسلام، من ذنوب ويلزمهم بأمور مثل الكفّ عن دعوى الجاهلية و...إلخ. ولعلّ زياداً قد شعر بأنّ أهل البصرة، قد نسوا بوعوده ووعيده وبرفقة تحذيره، فلهذا يختم كلامه بما يردّهم إلى الحيطة والخوف وأنذرهم من التمادى فى الباطل. نرى هذا فى قوله: «وإنّى أُقسمُ باللهِ لآخذنَّ الوَلىَّ بالمولى والمقيمَ بالظاعنِ، والمقبلَ بالمدبرِ والمطيعَ بالعَاصِى والصَّحيحَ بالسَّقيمِ...» ثمّ فى مقطع آخر يقول: «مَن نَقبَ مِنكُم عَليه فأنا ضَامنٌ لما ذَهَبَ

مِن مالِه. فإيّایَ ودَلجَ اللّیلِ فإنّی لا أوتیَ بمُدلِجٍ إلّا سُفَکت دمه وقَد أجّلتُکم فی ذلکَ بمقدارِ ما یأتی الخَبرُ الکُوفةَ ویرجعُ إلیکُم، إیّایَ ودَعوَی الجاهلیّةِ فإنّی لا أجِدُ أحَداً دعَا بها إلّا قُطعت لسانه... .»

ب. **بنیةُ الخطبة**: إنّه قد بنی الخطبةَ علی أسالیب مختلفة، لکی یلقی رأیه علی الناس ویقنعهم ویخضعهم أمام ولایته، من هذه الأسالیب هی الأو لی: عدم البسملة وحمد الله تعالی فی الخطبة، ولعلّ هذا یرجع الی خطیرة أمر مجتمعه. والثانیة: أسلوب النداء فی قوله: «أیّها النَّاسُ إنّا أصبَحنَا لَکُم سَاسَةً و... .» والثالثة: أسلوب الطباق: فی قوله «کالسُّفهاءِ والحُلَماء، الصَّغیر والکَبیر، الثَّواب والعَذَاب، و...» ومردّ ذلک إلی موضوع الخطبة ورغبته فی إجراء المقابلة بین الأضداد لتوضیح الفرق بین الطاعة والمعصیة وبین الثواب والعقاب والفروق السائدة بین أجیال المجتمع علی الإطلاق. والرابعة: أسلوب الإطناب: لیعالج موضوع الفساد والاضطراب السیاسی والاجتماعی فی البصرة. والخامسة: أسلوب السجع: فی قوله «إنّ الجهالةَ الجهلاءِ والضلالةَ العمیاءِ» أو فی قوله «ینبت فیها الصغیرُ ولایتحاشی عنها الکبیرُ» کی ینتبهو ا إلی کلامه الناس بواسطة هذه الزینة البیانیة. والسادسة: المزج بین أسلوبی النفی والإثبات: فی قوله «ما أنتم بالحُلَماءِ ولقَد أتبَعتُم السُّفَهاءِ» فهو ینفی عن الناس صفة الحلم والرزانة لعدم اعتراضهم أو لاتباعهم سیرة الجهلة والأراذل. والسابعة: الاعتماد علی ضروب من التقسیم کما تعتمد علی ضروب من التشبیهات والاستعارات وإن کان زیاد لایکثر من ذلک إلّا أنّه علی أی حال یعنی بالمهارة البیانیة فی خطابته کما یعنی بلفظها وصیاغتها. الثامنة: عبارات الخطبة: جاءت صلبة مناسبة للمقام الذی قیلت فیه، وصوّرت ما قد یحلّ بهم من عقابه تصویراً قویاً مفزعاً. وبطبیعة الحال بناء الخطبة بهذا الشکل یدلّ علی أنّها لم تکن مرتجلة وأعدّت إعداداً فنیاً محکماً.

ج. **غرض الخطبة الأساسی**: الخطبة ترینا علی أنّها تستتبع غرضاً مهماً وهو القضاءُ علی ما کان بالبصرة من شغب وتهدئةُ الجوللدولة؛ الخطیب رأی أن یصل إلی مأربه بأسالیب عدیدة منها التهدید الرهیب، والوعید، والإقناع، و.. الخ وإنّه نجح فیما أراده. بحیث أنّه مع کیاسته وحذاقته وَعَدَ المستقیمین خیراً وجعل لهم الحقّ فی محاسبته علی کذبه وأعلن أنّه لن یحتجب عن ذوی الحاجات ولن یحبس العطاء أو یحجز البعث وبهذا کانت له أمنیات بجانب تهدیده. (شلبی، ۱۹۸۶م: ۶۷) وختم الخطبةَ بطلب دعاء البصریین للحکومة بالصلاح وبإخلاصهم لها ولزوم طاعتها لا لأنّها فی حاجة إلیهم بل لأنّهم سیکونون عرضةً للهَلاک؛ فی قوله: «لستُ محتجباً عن طَالبِ حاجَةٍ مِنکُم ولَوأتانِی طَارقاً بلیلٍ. ولا حابساً عطاءً ورِزقاً عَن إبّانةٍ ولا مُجمَراً لَکُم بَعثاً فادعُوا اللهَ بالصَّلاحِ لأئمَّتکُم فإنّهم سَاسَتُکم المؤدّبونَ لَکُم وکَهفُکُم الّذی إلیهِ تَأو ونَ، ومتَی یصلَحُوا تصلَحُوا...» فمِن هذه المختارات من الخطبة، یمکن أن ندرک بأنّ البغیة الرئیسیة للخطبة تدور حول اصلاح المجتمع وصلاح أهله.

إن نوجز القول فی تحلیل هذه الخطبة، نفهم أنّها کانت متّفقة مع مقتضی حال نفسیة زیاد والمجتمع الذی کان یعیش فیه ومع الحالة السیاسیة والاجتماعیة آنذاک؛ الخطیب تأثّر فیها بمقتضیات مجتمعه وعصره المکتظة من الأحزاب والأفکار وأرغب أهلَه فی الطاعة والإذعان، والکفّ عن المسأو ئ والخلود إلی الهدوء والاستقامة فی العمل، حیث إنّه یظهر أمام مجتمعه بمظهر الواعظ الرادع ویذکّرهم بما أعدّ الله من الثواب والعقاب لهم، کلّ علی قدر ما یحسن أو یسیئ، ثمّ ینتقل من اللّوم والتهویل إلی التأنیب والزجر ویجسّم أمامَهم قبحَ أعمالهم وفظاعة سلوکهم ویبیّن لهم کیف تنکّروا للدّین وابتعدوا عن جادته وأمعنوا فی ضلالهم، حتی أطبقت علیهم السفاهة وملکت قلوبهم الجهالة، فأقاموا بیوت الفسق فخذلوا الشهامة والفضیلة، وناصروا الغوایة والرذیلة.

فی تصدیق ما بیّنناه مدعانا هذا، حسبنا أن نستمدّ بقول بعض الباحثین المجدّین حول هذه الخطبة؛ عمر فاروق الطباع أحد باحثی العصر الاموی المجدّین فی کتابه "مواقف فی الأدب الأموی" عندما یهتم بدراسة زیاد ابن أبیه وأدبه، یعتبر هذه الخطبة سیاسیاً حیناً واجتماعیاً حیناً آخر؛ حیث إنّه یحسبها بمثابة دستوراً للسیاسة التی سیتبعها زیاد بعد تولیة أمر البصرة. ویبدوأنّ الغرض السیاسی فیها، هو توضیح منهجه فی العمل وطریقته فی الحکم. ولذا تعتبر الخطبة أشبه ببیان وزاری، یعلن فیها الوالی الجدیدَ ما أزمع علیه من الخطوات الکفیلة باستقرار أمور المجتمع البصری واستتباب الأمن والنظام فیه. أمّا عندما یقسم الباحث هذه الخطبة علی مقاطع ثلاثة، نری أنّ جمیع هذه المقاطع تکون اجتماعیة وتدور حول المجتمع وأحواله وأحکامه. کما یقول إنّ «المقطع الأو ل تشتمل علی فکرتین مرتبتطین بالمجتمع وهما: ۱. تبیان ما یسود مجتمع البصرة وما یرتکبه أهلها من آثام الفسق والفحشاء. ۲. التندید بأهل البصرة والحملة الشدیدة علی فجورهم وسقطاتهم. والمقطع الثانی یتناول فیه ناحیتین مرتبطتین بأمور المجتمع وأحکامه هما: ۱. تحدید الأحکام التی ستوضع موضع التنفیذ لمواجهة المفاسد القائمة. ۲. النّص علی إلتزام جانب الحق والدعوة إلی إصلاح الأمور. والمقطع الثالث یدور حول نقطتین هما: ۱. الدعأو ة لبنی أمیة وتأیید سلطانهم وحقّهم علی الناس. ۲. تأکید السیاسة الحازمة والتحذیر من التمادی فی الباطل.» (فاروق الطباع، ۱۹۹۱م: ۲۵۹-۲۶۰)

إن نقارن تحلیلنا من الخطبة وکیفیة تأثّرها بالمجتمع ومؤثراته المختلفة مع ما بیّنه لنا الباحث فاروق الطباع، نستنتج بأنّ زیاد کان متأثراً من المجتمع البصری وأبرز لنا مظهر هذا التأثیر فی خطبته البتراء. ولقد أدّت الخطبة الدور المنقطع النظیر للأغراض التی کان یهدفها زیادُ.

**النتیجة**

یستنبط من هذه الدراسة النقاط التالیة:

١. الأدب يكون مولد البيئة الاجتماعية ومؤثراتها التى تكون منبعاً لإلهام الفنون المختلفة. لذلک فإنّ المجتمع هو الذى يؤثر بشكل مباشر فى أعمال الأديب، ولمؤثراته أهمية كثيرة فى بلورة أسلوب الفنان؛ بحيث إذا كانت الحياة الاجتماعية هادئة وغير مضطربة يتأثر الأديب من تلک البيئة ولايشكو من أى ألم بل يرغب فى ذكر جماليات نصّه وبيان زخارفه. وما إن كانت البيئة مضطربة والفتن فيها دائمة وتحتاج إلى حاكم مصلح يرشدها حتّى يفتح الأديب إمّا لسان الشكوى وإما لسان الإصلاح ويخلق شكلاً من الأدب فى قالب اجتماعى.

٢. بيّننا مظاهر هذا التأثير من خلال دراستنا الموجزة حول مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ودورها على نشوء وتطوّر الخطابة مستمداً بتحليل الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه. بحيث إنّ البيئة التى كان يعيش فيها زياد – مجتمع البصرة– كانت مضطربة وقلقة، ولم تكن على ما يرامها؛ لذلک تأثر الخطيب فيها من مقتضيات ذلک المجتمع ومؤثراته المختلفة كالبيئة الحضرية والبيئة الاجتماعية، وامتزاج العرب بالأمم الأخرى، والعصبيات والمفاخرات، والاضطرابات السياسية والاجتماعية. فظهر حيناً واعظاً وحيناً حاكماً أمام أهله بغيةَ الوصول إلى غرضه الإصلاحى وهو القضاء على ما كان فى مجتمعه من الاضطرابات السياسية والاجتماعية وتهدئة جوّه لحكومته.

٣. اعتبرنا شخصية زياد شخصية اجتماعيةً وإصلاحيةً من خلال أعماله الحكومية والقيادية وولاياته العديدة لأمراء الدولة الأموية كتولية إمارة فارس زمن الإمام على عليه السلام، ثمّ إمارة البصرة، فالكوفة، فالحجاز واليمامة، جميعاً زمن معاو ية، وبراعته فى علم الحساب والكتابة والخطابة.

٤. اعتبرنا الخطبة اجتماعيةً وإصلاحيةً لدواعٍ أهمّها: أنها قيلت فى البيئة الحضرية أى مجتمع البصرة المضطربة، ثمّ أنها بنيت على أساليب متعددة وفنية ومحكمة، وأخيرا أنها كانت تحمل غرضاً اجتماعياً. وأصدقنا على قولنا بالمقارنة مع قول أحد الباحثين فى ذاک العصر.

**المصادر** والمراجع


أبوزهرة، محمد. ١٩٨٠م. ***الخطابة أصولها تاريخها فى أزهر عصورها عند العرب***. ط٢. بيروت: دار الفكر العربى.

ابن عبد ربه. ١٩٥٢م. ***العقد الفريد***. شرح أحمد أمين. المجلد الرابع. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

البستانى، محمود. ١٤٢٢ق. ***الأسلام والأدب***. المكتبة الأدبية المختصة.

الجبيلى، سجيع. ٢٠٠٥م. ***الفنون الأدبية فى العصر الأموى***. ط١. مصر: دار ومكتبة الهلال.

جفال، على نعيم. ١٩٩٠م. ***زياد ابن أبيه بحث فى الخطابة الأموية***. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

الجنابی، عبد الکریم دوحان. ۲۰۰۵م. *تاریخ الخطابة العربیة إلی القرن الثانی الهجری*. ط ۱. القاهرة: مکتبة الثقافة الدینیة.

حجت، محمد. ۱۳۸۷. «اثرپذیری دیوان صائب تبریزی از قرآن کریم». فصلنامه مطالعات ادبیات تطبیقی. سال دوم. شماره ۶. صص۸۹-۱۰۴.

الحسین، قصی. ۱۹۹۸م. *تاریخ الأدب العربی العصر الأموی*. ط ۱. القاهرة: مکتبة الهلال.

الحوفی، أحمد محمد. ۱۹۶۵م. *أدب السیاسة فی العصر الأموی*. بیروت: دار القلم.

ـــــــــــــ ۲۰۰۱م. *فنّ الخطابة*. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر.

الخلف، عبدالله بن سالم. ۲۰۰۱م. *مجتمع الحجاز فی العصر الأموی بین الآثار الأبیة والمصادر التاریخیة*. ط ۱. مرکز بحوث ودراسات المدینة المنوّرة.

شلبی، عبد الجلیل عبده. ۱۹۸۶م. *الخطابة وإعداد الخطیب*. ط ۲. القاهرة: دار الشروق.

ضیف، شوقی. ۱۹۵۶م. *الفن ومذاهبه فی النثر العربی*. ط ۲. القاهرة: مکتبة الأندلس.

العاملی، حسین جمعة. ۱۹۸۳م. *الخطابة تاریخها، قواعدها، آدابها*. ط ۱. بیروت: مطبعة وزنکوغراف الفکر.

عبد العزیز، عتیق. ۲۰۰۱م. *فی الأدب الإسلامی والأموی*. ط ۱. القاهرة: دار النهضة العربیة.

الفاخوری، حنّا. ۱۳۷۷ش. *تاریخ الأدب العربی*. ط ۱. طهران: نشر التوس.

فاروق الطباع، عمر. ۱۹۹۱م. *مواقف الأدب الأموی*. ط ۱. بیروت: دار القلم.

فرحانی بغلانی، إبراهیم. ۱۳۷۳ش. *حرکة تطور الخطابة فی الأدب العربی من العصر الجاهلی حتی نهایة العصر الأموی*. رسالة الماجستیر. تهران: جامعة تربیت مدرس.

فروخ، عمر. ۱۹۹۲م. *تاریخ الأدب العربی. الجزء الأول*. ط ۶. القاهرة: دار العلم للملایین.

قدامة بن جعفر، أبی الفرج. ۱۹۳۷م. *کتاب نقد النثر*. ط ۲. القاهرة: لجنة التألیف والترجمة.

النص، إحسان. ۱۹۶۳م. *الخطابة العربیة فی عصرها الذهبی*. القاهرة: دار المعارف.

یازجی، کمال. ۱۹۸۶م. *الأسالیب الأدبیة فی النثر العربی القدیم*. ط ۱. بیروت: دار الجیل.

-http://www.mohtawa.org

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی